في معركة السلام

٢– بين المتنبي والحاتمي

« يشقى رجال، ويشقى آخرون بهم ويسعد الله أقواماً بأقوام »

ولقد اضطرب الحاتمي في روايته اضطراباً عجيباً ، ولم يكد يروي لنا شيئاً إلاّ روى نقيضه ، حتى أذكرنا بالحكاية المعروفة التي كانوا يقصونها علينا ، وخلاصتها أن سيدة استعارت من جارتها مكيالاً ولم ترده إليها ، فلما ألحفت عليها أعادت إليها مكيالاً تدعياً فقالت لها جارتها : « ليس هذا مكيالي الذي استعرته مني » فأجابتها مغضبة : —

« لست عقة فيما تزعمين ، وما أجدرني أن أصارحك القول ، فتعلمي أولاً أن هذا أكبر من مكيالك وتعلمي ثانياً أن هذا المكيال جديد وأن مكيالك قديم ، ثم تعلمي ثالثاً أنك لم تعطني مكيالاً البتة ! »

وهكذا يأبى الحاتمي إلاّ أن يقنعنا في رسالته بمثل هذا المنطق المضطرب العقيم ، فهو يقص علينا أنهُ رحب بالمتني ووفاهُ حق السلام « غير مشاح لهُ في القيام » حينما يقص علينا أيضاً أنهُ حين لقي المتني تمثل بقول الشاعر :

« وفي المشي اليك عليَّ عار ولكن الهوى ...

تمثل المتني بقول الآخر :

« يشقى رجال ، ويشقى آخرون بهم ويسعد الله أقواماً بأقوام

وليس رزق الفتى من فضل حيلته لكن جدود وأرزاق بأقسام

كالصيد يحرمه الرامي المجيد، وقد يرمي فيحرزه من ليس بالرامي ! »

أرأيت خيراً من هذه التحية وأدلّ منها على تبادل الاجلال والمحبة ؟ (١)

---

(١) اراد الحاتمي أن يقنعنا في رسالته بكثير من المتناقضات منها :

أنه ذهب الى المتنبي في بيته متقيا لتساليه على الوزير المهلبي وعضد الدولة ، بعد أن أعيته الحيل في تناسي لقائه جاهداً، وأنه مع — هذا السعي الحثيث الى لقاء المتنبي — كان يحتقره ولا يراه جديراً بالاهتمام وأنه بدأ المتنبي بالاحترام والتحقير — في وقت واحد — وأنه كان البادىء بالهجوم على المتنبي — ولم يكن له مع ذلك بد في ذلك الهجوم لان المتنبي هو البادىء بمهاجمته . وقد لجأ الحاتمي الى هذا الاسلوب ليضمن شيئين : اولهما ان يؤكد لسادته انه تطوع بمهاجمة المتنبي واقتحامه ارضاء لهم وثانيهما أن يتظاهر للناس بأن المتنبي كان البادىء عليه ولولا ذلك ما هاجمه الحاتمي . ولا سبيل الى الجمع بين الامرين الا اذا لجأنا الى منطق صاحبة المكيال !

ويخبرنا الحاتمي أنهُ جلس مستوفزاً وجلس المتنبي محتفزاً ، ويقول : « وأعرض عني لاهياً ، وأعرضت عنهُ ساهياً ، أؤنب نفسي في قصده وأستخف رأيها في تكلف ملاقاته »

والعجيب أن يعجب الحاتمي بعد ذلك من اعراض المتنبي عنهُ واقباله على غيره ، وإبائه — كما يقول — « إلاّ ازوراراً ، وعتواً واستكباراً » ونحسب أن المتنبي كان قد سمع من بعض جلسائه بغرور الحاتمي وتحفزه لتحقيره والزراية عليه ، ولو انهُ لم يسمع بشيء من ذلك لكان في هذه المقابلة ما يبرر أعراضه عنهُ . ولعلهُ رأى على اسارير وجهه نزوعه الى الشرّ وتحفزه للمخاصمة ، والمتنبي لم ينس بعد ما جرتهُ عليه معاداة الرجال من المصائب والاهوال ، ولم ينس ما جرّه عليه احتقاره ابن خالويه وأضرابه ، والمتنبي غريب الدار ، ولعله ادرك أن الحاتمي — كابن خالويه — يد متحفزة للبطش به مؤيدة بساعدي عضد الدولة والوزير المهلبي ، فحاول المتنبي أن يجاملهُ ، ورأى — كما يقول الحاتمي : « أن يثني جانبه اليه ويقبل بعض الاقبال عليه » فقال لهُ « ايش خبرك » وما كاد ينطق بها حتى انفجر بركان حقده السكين ، وانطلق في سبابه انطلاقاً ، وأدّى بذلك الرسالة التي تطوّع بها — أو على الاصح — التي طلب اليه أن يؤديها اليه فقال للمتنبي :

« بخير أنا ، لولا ما جنيته على نفسي من قصدك ، ووسمت به قدري من ميسم الذل بزيارتك ، وجشمت رأيي من السعي إلى مثلك ممن لم تهذبه تجربة ولا أدبته بصيرة »

قال الحاتمي : ثم تحدرت عليه تحدر السيل الى قرارة الوادي وقلت لهُ : « أبن لي ممّ تيهك وخيلاؤك ؟ وعجبك وكبرياؤك ؟ وما الذي يوجب ما أنت عليه من الذهاب بنفسك والرمي بها إلى حيث يقصر عنه باعك ولا يطول اليه ذراعك ؟ هل هنا نسب انتسبت إلى المجد به ؟ أو شرف علقت بأذياله ؟ أو سلطان تسلطت بعزه ؟ أو علم تقع الاشارة اليك به ؟ إنك لو قدرت نفسك بقدرها ، أو وزنتها بميزانها ولم يذهب بك التيه مذهباً ، لما عدوت أن تكون شاعراً مكتسباً »

ويحدثنا الحاتمي — وهو الراوية الثقة كما رأيت ! — : « أن المتنبي لم يكد يسمع منهُ ذلك حتى امتقع لونه وغص بريقه ، وجعل يلين في الاعتذار ويرغب في الصفح والاغتفار »

وما كان أحوجنا إلى سماع رواية المتنبي عن سبب اعتذاره اليه — إن صح ما زعمه الحاتمي — وهل كان اعتذاره اليه لانهُ اقتنع بهذه الحجج الدامغة أم لما رآه على اساريره من أمارات الاضطراب والخبل، فإن من الناس من يحاجك بغير المنطق وترى في أساريره تحفزاً للفتك بك إذا لم تقر كل ما يقول وتذعن لما يمليه عليك من الآراء إذعاناً ؟

على أننا نرى من رواية الحاتمي أن المتنبي حاول جهده أن يصرفه عنهُ ويتخلص من

شره ، ويبتعد عن الحاجة لا يدري مغبتها ولا يعرف إلى أين ينتهي مداها ! فاعتذر إليه بأنه لم يقصد الاساءة اليه باعراضه عنه وأكد له انه لم يتثبته ، ولكن الحاتمي أبى الا ان يتم الرسالة التي جاء ليؤديها اليه غير منتقصة ولا مبتورة فقال له : —

« يا هذا ! إن تصدك شرف في نسبه — يعني نفسه — تجاهلت نسبه ! أو عظيم في أدبه صغرت أدبه ، أو متقدم عند سلطانه خفضت منزلته ! فهل المجد تراث لك دون غيرك؟ كلا والله ، لكنك مددت الكبر ستراً على نقصك وضربته رواقاً حائلاً دون مباحثتك! »

ومازال الحاتمي يؤكد لنا أن المتنبي نسيه — بعد أن علم أنه شريف في نسبه عظيم في أدبه متقدم عند سلطانه — وأخذت الجماعة تترضاه ضارعة اليه أن يصفح عن ذلة المتنبي ويغتفر له تقصيره ، وأن المتنبي ظل يؤكد له القسم أنه لم يعرفه معرفة ينتهز معها الفرصة في قضاء حقه ، والحاتمي يقول له : —

« ألم استأذن عليك باسمي ونسبي ؟ أما كان في هذه الجماعة من كان يعرفني لو كنت جهلت ، وهب أن ذلك كذلك ألم تر شارتي ؟ أما شاهدت ملبسي ؟ أما شممت نشر عطري؟ ألم أتميز في نفسك عن غيري ؟ ألم تر تحتي بغلة يعلوها مركب صقيل وبين يدي عدة غلمان؟ »

الى آخر هذه العبارات التي تدل على اضطراب وخبل أو على حماقة تتضاءل أمامها كل حماقة . وكأنما شعر المتنبي أن الحاتمي هذا لم يزره الا مستثيراً فقد طالما الف من طلاب الشهرة التحكك به ، او موعزاً إليه من قبل سادته فقد طالما عانى المتنبي وأمثاله عنت هؤلاء الاذناب وسلاطتهم . ولعله سمع أنه كان يتشهر به في مجالسه الخاصة أو بلغه عنه ما يقرب من ذلك .

فلما اطمأن الحاتمي الى اقتناعنا بانهزام المتنبي أمامه ، أخذ يحدثنا عن مجاوزته بعد ذلك عن اساءته مجاوز القادرين ويقص علينا كيف بدأت المناظرة بينهما وكيف هزم المتنبي هزيمة منكرة وكيف ردّ كل بيت من أبياته الى مصدره الذي سرقه منه واقمه بعيوبه وسخفه ، فكان المتنبي لا يذكر له بيتاً من غرره حتى يرده الحاتمي الى اصله ارتجالاً . وقد احسن ابن خلكان كل الاحسان في كلمته التي علق بها على هذه المناظرة اذ قال :

« فإن كان كما ذكر أنه أبان له جميعها في ذلك المجلس ، فما هذا إلا اطلاع عظيم وشهادة لصاحبها بالفضل الباهر مع سرعة الاستحضار »

وهذه الكلمة تدل على يقظة بارعة طالما ألفناها من ابن خلكان في تراجم من تناولهم بالذكر في كتابه الحافل ، فقد لمح تلميحاً دقيقاً لما يساوره من الشك في رواية الحاتمي عن نفسه واستكثر عليه أن يرد كل بيت الى مصدره بمثل هذه السرعة !

ولو افترضنا صدق الحاتمي في روايته لاستدللنا بذلك أن عناية الادباء بدرس شعر المتنبي

في دار السلام قد بلغت اقصاها وانهم عنوا بتتبع مآخذه ، فلم يجد الحاتمي من الصعب عليه أن يظهر للمتنبي امثال هذه المآخذ الشائعة ، ثم زاد على ما حدث وغالى في روايته — بعد ذلك — واضاف الى ما قال ما لم يقل حتى أتم رسالته.

مثال من انتقاد الحاتمي

واكثر انتقاد الحاتمي تافه لا قيمة له ، وجله من الانتقادات المبهمة الغامضة ، وقد أخذ عليه عيوباً لا يسلم منها شاعر قديماً كان او حديثاً عربياً كان او غربياً ، وليس أيسر على الناقد اذا شاء أن يعدد مساوىء شاعر من ذكر عدة هنوات وقع فيها ، وليس يسلم الذهن الانساني — مهما سما — من الاسفاف احياناً والشعر — كما يقول ابن الرومي — كالشجر :

« ركب فيه اللحاء والخشب اليا بس والشوك بينه الثمر
فليعذر الناس من اساء ومن قصر في الشعر انه بشر
مطلبه كالغاص في درك اللجة من دون درها الخطر »

ولا ندري ماذا كره الحاتمي من قول المتنبي في هجاء ابن كيلغ :

« واذا اشار محدثاً فكأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم »

فقد قال للمتنبي: « اما كان في افانين الهجاء التي تصرفت فيها الشعراء مندوحة عن هذا الكلام الذي ينفر عنه كل سمع ويمجه كل طبع » وليت المتنبي قال له: « بل هذا كلام يرتاح اليه كل سمع ويأنس به كل طبع » ما دام يأبى الحاتمي إلا أن يتخذ من سمعه مقياساً لكل سمع ويجعل من طبعه نموذجاً لكل طبع !

ونحن لا نقول إن كل نقد الحاتمي تافه ، فقد ذكر للمتنبي عيوباً حقيقية كان المتنبي جديراً أن لا يقع في مثلها ، ولكننا نقول ان امثال هذه العيوب لا يسلم منها شاعر كائناً من كان وبالغاً ما بلغ من السمو والرفعة ، والمتنبي كالبنية الشاهقة المدعمة الاسس لا ينقص من قيمتها أن يلمس فيها المتعنت بعض هنوات تافهة ، ولا يعيبها أن في احدى غرفها لوحاً زجاجياً مكسوراً .

وقد عير الحاتمي المتنبي بتقصيره عن أبي نواس في بعض معانيه ، ولو ان الحاتمي كان معاصراً لأبي نواس وأغرى به كما اغرى بالمتنبي لعيره بأنه قصر عن جرير او الأخطل مثلاً ، ولو كان معاصراً لهذين لعيرهما بتقصيرهما عن غيرهما ممن تقدمهما ، والشاعر كالسياسي كثيراً ما يعيره

خصومه بالتقصير عن سلفه حتى اذا مات عيروا من يخلفه بالتقصير عنه ، بعد أن كانوا يعيرونهُ بالتقصير في حياته

***

ورسالة الحاتمي طويلة لا تتسع هذه الكلمة المجملة الوجيزة لمناقشتها ، فلنقتصر على مناقشة المحور الذي دارت عليهِ المناقشة ، وهو الأساس الذي يعتمد عليهِ اكثر نقدة الشعر العربي خاصة ، فقد حاول الحاتمي أن يظهر المتنبي بمظهر اللص وأن ينبه الى معانيهِ المسروقة والسرق آخر حيلة يلجأ اليها النقاد لهدم الشاعر بعد أن تعييهم الحيل ، وقد رُمي بهذه النقيصة كل شاعر قديم ومحدث. وعندنا ان المعاني الجوهرية مشتركة بين الناس — على اختلاف لغاتهم وأزمانهم وبيئاتهم وأجناسهم — وانك لو حاولت أن تجد لاكثر المعاني أشباهاً لما اعياك ذلك . وربما قلت المعنى تحسب انك انفردت بهِ ثم عثرت على شبيهه بعد عام او عامين في شعر قديم أو حديث عربي أو غربي . وقديماً قال عنترة : «هل غادر الشعراء من متردم» .

ذلك أن النفس الانسانية — على اختلاف نزعاتها وشتى احساسها وشعورها — تكاد لا تختلف في الشعور بامهات المعاني ، وثمة تتوارد الخواطر . وانما يمتاز الشاعر على الشاعر بالافتنان في اداء هذه المعاني، وروعة الاداء ودقة التعبير عن دقائقها وظلالها والابداع في صوغ الخوالج النفسية والصور الشعرية المشرقة بالحياة والقدرة على تهيئة الجو الرائع الذي تحلق فيهِ شاعريته وعرض معانيهِ في أبهى صورها وأجمل حللها .

ولنضرب للقارىء مثلاً واحداً من امثلة عدة لا يتسع لها المقام :

لعل كثيراً من الناس يدركون من امثلة الحياة ونظمها ان ما يضر واحداً قد ينفع الآخر . هذا معنى شائع ميسور لكل متأمل وليس للسرقة مجال فيهِ . وقد افتن كثير من الشعراء في صوغهِ فظهرت مميزاتهم ومواهبهم وتجلت قدرة الشاعر على الابداع

وقد صاغه المتنبي في ابسط صوره فقال : « مصائب قوم عند قوم فوائد »

وتناوله ابن الرومي من قبله فجلاه في صورة أخرى وهي قوله :

« فاعجبي إنما عجاؤك عندي ضحكات تزيد في السراء
ومحالٌ ان يسعد السعداء الدهــــر الا بشقوة الاشقياء »

فلما طرقه المعري جلاه في ابدع صورة وأجملها فقال :

« وسخط الظباء بما نالها تولد منهُ رضى الحابل »

فمثل لنا — من ذلك المعنى الشائع المطروق — صورة رائعة دقيقة مشرقة بالحياة وأظهر لنا ريشة المصور الفطن خلية يوقعها القدر وسوء الحظ ونكد الطالع في حبالة

القانص فتدرك أن حينها قد اقترب وأن هلاكها وشيك . وصادف براها — في هذه الحال من الالم والسخط — فيرى فرصة ثمينة نادرة بات يحلم بها طويلاً

ولقد احسن الجرجاني[1] حين قال من فصل طويل نحب ان يرجع اليه القارىء في كتابه — :

« وقد يتفاضل مدعو هذه المعاني بحسب مراتبهم ، فتشترك الجماعة في الشيء المتداول وينفرد أحدهم بلفظة تستعذب او ترتيب يستحسن أو تأكيد يوضع موضعه او زيادة اهتدى اليها دون غيره فيريك المبتذل في صورة المبتدع والمخترع »

وقد ضرب الجرجاني لذلك امثلة كثيرة ثم قال : « ولم يبق عليك الاّ ان تحترس من التفريط كما احترست من الافراط ، فلا تكن كمن يرى السرق لا يتم إلا باجتماع اللفظ والمعنى ونقل البيت جملة والمصراع تاماً ، بل لا يعرف السارق إلا من يفعل فعل عبد الله بن الزبير بأبيات معن بن أوس » [2]

الى ان قال بعد كلام طويل : —

« والسرق — ايدك الله — داء قديم وعيب عتيق ، وما زال الشاعر يستعين بخاطر الآخر ويستمد من قريحته ويعتمد على معناه ولفظه ». ومن أجمل ما أورده في ذلك الفصل قوله :

« ومتى أنصفت علمت أن اهل عصرنا ثم العصر الذي بعدنا أقرب فيه الى المعذرة وأبعد من المذمّة ، لأن من تقدمنا قد استغرق المعاني وسبق اليها وأتى على معظمها ، وانما يحصل على بقايا اما أن تكون تركت رغبة عنها واستهانة بها أو لبعد مطلبها واعتياص مرامها وتعذّر الوصول اليها ، ومتى أجهد أحدنا نفسهُ وأعمل فكرهُ وأتعب خاطره وذهنه في تحصيل معنى يظنهُ غريباً مبتدعاً ونظم بيت يحسبهُ فرداً مخترعاً ، ثم تصفح عنهُ الدواوين لم يخطئه أن يجده بعينه او يجد لهُ مثالاً يغض من حسنه . ولهذا السبب احظر على نفسي ولا أرى لغيري بت الحكم على شاعر بالسرقة ، وقد أحسن أحمد بن أبي طاهر في محاجة البحتري لما ادعى عليه السرق . قوله :

(١) علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب « الوساطة بين المتنبي وخصومه »

(٢) وحكايته كما قال الجرجاني انه دخل على معاوية فأنشده لنفسه :

اذا انت لم تنصف اخاك وجدته على طرف الهجران ان كان يعقل

ويركب حد السيف من ان تضيمه اذا لم يكن عن شفرة السيف مزحل

فقال له معاوية : « لقد شعرت بعدي يا ابا بكر » ولم يفارق عبد الله المجلس حتى دخل معن بن أوس المزني فأنشده ابيتين فقال : « الم تخبرني انها لك » فقال : « نعني لي والتفظ له ! وبعد فهو اخي من الرضاع وانا أحق الناس بشعره »

«والشعر ظهر طريق أنت راكبه فمنهُ منشعب أو غير منشعب
وربما ضمَّ بين اركبٍ سهجةٌ وألصق الطنب العالي على الطنب»

***

وإنما ذكرنا هذه الكلمة لتكون اساساً يبني عليه القارىء حكمه حين يقرأ الرسالة الحاتمية وغيرها من الرسائل التي عنى أصحابها بذكر سرقات الشعراء فيها. ونحب أن نلفت القارىء الى دقة «المعري» وانتباهه الى هذا المعنى حين تصدى في رسالة الغفران لتعرف الزمان فقال: «وقد حددتهُ حدّاً ما أجدرهُ أن يكون سبق اليه، إلاّ أني لم أسمعهُ» (١)

كلمة ختامية

ونعود الى المتنبي والحاتمي فنقول:

إن المتنبي لم يكن ليقيم لمثل الحاتمي وزناً لاسيما بعد أن سم المنازعات والمنافرات وبعد أن حطم الدهر آماله في الملك وبعد ان تصدى لمداوة من لا يقاس الحاتمي اليهم في علم أو أدب أو سلطان. ولكنهُ أراد أن يتخلص منهُ ويصرفه عنهُ وعرف انهُ طالب شهرة يريد أن يتحكك به، وليس من العجيب ان يتهافت مثل الحاتمي على المتنبي وأن يسجل له موقفاً معه يحفظه له التاريخ، وحسبهُ أن يناظر رجلاً «قد شغلت به الألسن كما يقول ابن شرف القيرواني وسهرت في اشعاره الاعين، وكثر الناسخ لشعره والناقص في بحره والمفتش عن جمانه ودره وطال فيه اختلاف ذكر عنه الكشف»

ولا بد للمتني «من شيعة تغرق في مدحه — كما يقول القيرواني — وخوارج تتعب في جرحه»

وقد رأينا في هذا الفصل احد الخوارج الذين تعبوا في جرح المتنبي فلم يوفقوا في ذلك اي توفيق، وقد حاول الحاتمي أن يسحق لنا المتنبي فلم يسحق الا نفسه وأراد أن يقنعنا بغلبته عليه فوفق كل التوفيق في أن يقنعنا بعكس ما أراده، واتاح لنا فرصة نادرة للفكاهة. على ان للحاتمي شيئاً من الشعر المستملح وذوقاً ادبيًّا موفقاً — في بعض الاحايين — ولكنه كان في هذه الرسالة مخرّفاً متحاملاً وقد اضله الهوى والغرور، ولا نريد أن نصمه بالكذب والادعاء فيما رواه، فلنكتف بوصفه بالمغالاة والاغراق

القاهرة كامل كيلاني

(١) ارجع الى رسالة الغفران (ج ٢ ص ٣٢)